باب التقريظ والانتقاد

تاريخ التمدن الاسلامي

صدر الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي لمؤلفهِ العالم الفاضل جرجي افندي زيدان صاحب مجلة الهلال وهو يبحث "في نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية وابهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة"

وقد قال حضرة مؤلفهِ في مقدمتهِ انهُ آخر اجزاء الكتاب واقربها الى افهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم لانهُ يبحث في مثل ما ألفوهُ من العادات والآداب والابحاث الاجتماعية والمواضيع العمرانية والاحوال العائلية

وهذا الجزء اربعة ابواب كبيرة الاول نظام الاجتماع . والثاني الآداب الاجتماعية . والثالث حضارة المملكة . والرابع ابهة الدولة . وقد جاء في الباب الاول تحت عنوان "طبقات الناس في الشام والعراق" ما يأتي :

"نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي ومكان هذه البقعة اكثر امم الارض اختلاطاً في اجناسهم وادیانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من اقدم ازمنة التاريخ . ولعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم ان اقدم من عُرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين . وكانت مساكن القبائل السامية تمتدُّ من دجلة عند اطراف ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غرباً وشواطىء اليمن وحضرموت جنوباً لخليج فارس وبحر عمان شرقاً . وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى (١) الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية كانت مواطنهم في ما بين النهرين والعراق وسوريا الا قسماً من شواطئها (٢) العبرانيون وهم القبائل السامية الوسطى ومواطنهم في فلسطين وشواطىء سوريا (٣) العرب وهم القبائل السامية الجنوبية ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية وانتشروا بتوالي

الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ اهمها امة السريان في ما بين النهرين والعراق والكلدان في اعالي سوريا. وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين للسرياني والكلداني. والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية . واما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ومن فروعها او اخواتها الحميرية والحبشية . واقرب القبائل العربية الى الشام الانباط وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام

"فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . اما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لامم لا يعرف اصلها وكان الساميون اقوى منهم فتغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب — السريان فالكلدان فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط وخالطتهم امم شتى غير سامية اقامت بين اظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانهُ ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم

"على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر . فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها خلفاؤهُ يونانية وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا باهلها ولاسيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها واكثر تغلبهِ على سواحل بحر الروم و يضعف شأنهُ في الداخلية تدريجاً

"ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية تحافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليهِ في ايام داود وسليمان الاَّ ما اصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي بابل فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعُرفت باللغة الآرامية او الكلدانية وبها كتبوا التلمود . وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

"فكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين

وهم السريان في الشمال والشرق واليهود والسامريون في الجنوب وبقايا الانباط في الغرب يليهم العرب الغسانية والمناذرة ثم قبائل اياد وربيعة بين النهرين ويتخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجراجمة في جبل الكلام والجرامقة في الموصل واخلاط من مولدي اليونان الرومان على الشواطىء ومولدي الفرس والاكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب او الجنس او اللغة فاصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يتقدم في تأييد الدولة . فالكنيسة القسطنطينية كانت ام كنائس المشرق وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها والكلام في تفصيل ذلك يطول

" اما حال الاهالي بالنظر الى الحكومة فكان على غير المألوف بيننا لبعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة او ديناً او جنساً . فالرومان كانوا يعدّون البلاد واهلها وهم العامة ملكاً لهم يتصرفون بهم كيف شاؤا وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدّون من توابع العقار فينتقل العقار من مالك الى آخر وفلاحوهُ معهُ ويسمونهم سرف (Serfs) اي الاقنان (جمع قن) لأن الذين تسمو بهم هممهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين طبقة الخاصة وهم الملك واهلهُ واعوانهُ ورجال الدين ومن جرى مجراهم . والعامة اهل البلاد الاصليون واكثرهم الفلاحون او الاكرة

" فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية نشأوا مع مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانحط شانهم بعد انتسامها ولم يبقَ لهم عمل فلما امتدت سطوة الروم الى الشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الا اهل السطوة والهيبة فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم استعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً على كل اقليم بطريق معهُ الجند كأنهُ حاكم مستقل وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها وانما جعلناها منها في كلامنا عن الاهالي لانهم واهل الشام من اصل واحد كما رأيت "

وجاء تحت عنوان " طبقات الناس في مصر " ما يأتي

" ان سكان مصر اقل اختلاطاً من سكان الشام والعراق ومع ذلك فقد توالت الهجرة اليها من اقدم ازمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام لهم الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح . فيأتون على ان تكون اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا يمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان و يصيروا جزءاً منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم من عصبية سائر رعاياهم حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين فاهيك بمن كان يأتي مصر للاتجار او للاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

" وكان الفاتحون يترفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة وتقاطر اليونان في ايامهم بكثرة وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم واكثرهم من الجند او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شان الرومان فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون والروماني يمتاز عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

" فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين (١) الرومان او الروم وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الاكليروس (٢) الاهالي وهم الاقباط الاصليون يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة او غيرها من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية . وكان بين الحكومة والاهالي فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون والاقباط على مذهب يعقوب البراذعي وهم يعاقبة "

وجاء تحت عنوان " مساحة الارض الزراعية في القطر المصري " ما يأتي

" استخرجت مساحة الارض الزراعية بالاحصاآت الرسمية لتعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧ هـ فبلغت مساحة الارض الزراعية على يركبهُ النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان اي نحو اربعة اضعاف ما بلغت اليوم مساحتها اليوم مع اجتهاد حكومتنا

في تعميم وسائل الري ببناء الجسور واخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد انها مكذوبة اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة

" فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في امكنة اخرى ان الارض الزراعية نقصت في ايام ابن المدبر اي بعد قرن ونصف القرن الى ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع واشترطوا عدداً معلوماً منهم فاذا نقص نقصت غلة الارض

" ولا يتجلى لك وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في هذا العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذٍ مثل حدودها الآن اي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والجيزة لحكمنا باستحالة زعمهم : لان مساحة مصر الجغرافية اليوم وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والعريش نحو ٤٠٠ ٠٠٠ ميل مربع معظمها صحراء قاحلة . اما الارض الزراعية فمساحتها ١٧ ٢٢٦ ميلاً مربعاً يخرج منها ٧٥ ٤ ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها فالباقي ١٢ ٩٧٦ ميلاً مربعاً اي نحو ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان وهي الارض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد

" ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ابان تمدنهم ومما جاء من اخبارها القديمة ان حدودها الزراعية كانت اوسع من ذلك كثيراً — ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار

" وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهة الشرقية الى البحر الاحمر واراضي البجة وكانت اطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اختبرنا ما ذكروه من هذا القبيل وان النيل كان اكثر فروعاً واغزر ماء واوسع فيضاناً مما هو عليه اليوم هان علينا قبول الزائم وان كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً بتزويد ما يغطيها من الرمال وزروائها بالترع المتصلة اليها من النيل او بالآبار الارتوازية نرى اقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيداً ورجال الاعمال يدرسون امثال هذه المشروعات

"واشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني . واما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقريزي انهُ كان في هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠٠٠٠ بيت في بعضها مئة انسان ومئتان اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات او ست او سبع ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد فكم تكون عمارة هذه . ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط وكانت الفسطاط تسمى (مصر) فلما صارتا مدينة واحدة اطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا (مصر القاهرة) ولما خربت الفسطاط خلل هذا الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور"

والكتاب كلهُ على هذا السوق من التدقيق والسهولة وفيهِ حواشٍ بالاسانيد التي اعتمد حضرة المؤلف عليها في تأليفهِ مثل المقريزي ونفح الطيب والاغاني وابن خلدون والمعارف لابن قتيبة والكامل للمبرد ومختصر الدول وغير ذلك . وهو يشهد بفضل مؤلفهِ وشدة ما عانى من الصعاب حتى جاء بهِ كما هو . فنهنئهُ خالص الشكر ونحث الادباء ومحبي التاريخ على اقتناء كتابهِ واجتناء ثمارهِ . اما ما فيهِ من الاخطاء فسنتكلم عليهِ في وقت آخر

صرف ونحو انكليزي

اهدى الينا حضرة الاديبين محمد افندي رخا من مدرسي مدرسة عابدين ومحمد افندي عبيد من مدرسي كلية غردون نسخة من كتاب صرف ونحو بالانكليزية سماهُ "ThePupil's Grammar" للتلامذة المصريين وخصوصاً المرشحين لامتحان الشهادة الابتدائية . وهذه النسخة من طبعة ثانية للكتاب ادخلا عليها كثيراً من التغيير والتنقيح فجاءت اصح من الطبعة الاولى واوفى بالحاجة . وقد عرضاها على جميتي مكملان ولنجمان في لندن فشهدا لها شهادة حسنة جداً

سقوط نابوليون الثالث

وقفنا على المجلد الثاني من رواية سقوط نابوليون الثالث لحضرة معربها الشاعر الاديب نقولا افندي رزق الله مدير جريدتي الاهرام والبراميد وهي رواية تاريخية اجتماعية ادبية غرامية عصرية والمجلد الثاني كالاول في طلاوة عبارتهِ وسهولة مأخذهِ . والرواية كلها ثلاثة مجلدات وسينشر المجلد الثالث وفيهِ بقية الحديث